الاقتراض فى اللغة

حدوده ومداه

الدكتور/ السيد محمد محسب

الاقتراض: تعريفه – نشأته – أنواعه

أولا: تعريف الاقتراض:

نرى من المفيد أن نحدد معنى هذه الكلمة لغويا، ثم نبين بعد ذلك العلاقة بينهما وبين ما أردنا.

أولا: المعاجم العربية:

من خلال معاجمنا العربية نرى أنها تستعمل لمعان شتى منها: القرض بمعنى القطع يقال: قرضه أى قطعه، ما يتجارى به الناس بينهم، ما تعطيه من مالك الإنسان لتُقضاه، وتقارضا الثناء: إذا اثنى كل منهما على صاحبه وقرض الأرض: قطعها، وقرض المكان: إذا عدل عنه وجاوزه إلى غيره، ومنه قوله تعالى: "وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال"(١) أى تخلفهم وتجاوزهم وتتركهم فالمادة كما نرى تدور حول القطع ومنه جاء اقترض بمعنى "اقتطع"(٢).

ثانيا: المعاجم الأجنبية:

فى المعاجم الأجنبية يظهر لها معنيان معنى القرض: السُلْفَة Lend, Leon ومعنى الاستعارة Borrowing والفعل: اقترض بمعنى

---

١) سورة الكهف الآية ١٧.

٢) لسان العرب، مقاييس اللغة، المعجم الوسيط، مادة "قرض".

استعار Borrow ومنه مقترض أى مستعير Borrower[١] والمعنى الثانى هو الذى يتفق مع المطلوب.

أما الفرنسية فتعبر عن هذا المعنى بالكلمة Emprunt[٢] إذن المصطلح الذى نقصده هو بالعربية الاقتراض وبالإنجليزية Borrowing وبالفرنسية Emprunt ومعناه اخذ لغة من أخرى فى الصيغ أو المفردات أو الأساليب.

وهنا نوضح العلاقة بين المادة العربية وبين المعنى الذى سبق، لقد ابنا أن المادة تدور حول القطع والإنسان الذى يقترض من لغة أخرى بمقتطع منها ما يضمه إلى لغته تزداد نماء وثروة، كما يزداد آخذ القرض مالا وغنى، كما أن من معانيها: المجاوزة فالإنسان الذى يقترض من لغة أخرى يعدل عن لغته ويتجاوزها إلى لغة أخرى، وأيا كانت العلاقة والصلة فإنا لا نعثر على استعمال لهذه الكلمة بالمعنى الذى أسلفنا، لان إطلاق الاقتراض بالمعنى المراد لم يكن يستعمل عند اللغويين العرب. وإنما شاعت عبارة الأخذ من لغة العجم والمعرب والدخيل لان بحوثهم كانت مقصورة على ما دخل العربية من اللغات الأخرى، وكان بطبيعة الحال مقصورا على الألفاظ، ولم يعرضوا لتأثير العربية فى غيرها وما دخل اللغات الأخرى منها، وذلك راجع إلى حرصهم الشديد على لغتهم، ورغبتهم القوية فى معرفة أصولها، كما انهم شغلوا بأمر لغتهم يبنون ثراءها، ويكيلون المديح لها، ويظهرون مفاتنها، ويتقصون شواردها ويوضحون ما ظهر لهم فيها من خيال سحرى.

لهذا آثرنا استعمال كلمة "اقتراض" لعموم معناها ولم نستعمل كلمة "استعارة" التى تتفق مع المعنى الأجنبى – نظرا لان الاستعارة – شاع

---

١) القاموس العصرى عربى – إنجليزى.

٢) قاموس عربى – فرنسى.

إطلاقها فى البحوث اللغوية المتعلقة بالبلاغة فاصبح علما على ذلك ينصرف إليه الذهن عند الإطلاق والبحث الآن يتجه إلى تحديد الملامح، وبيان المسميات حتى لا يختلط مصطلح بآخر، ولا يلتبس تعبير بغيره.

ثانيا: نشأة الاقتراض:

إن الحاجة هى التى تخلق المسميات، وأصبح من المألوف أن يقال: إن الابتكار وليد الحاجة، فكلما وجد الإنسان نفسه محتاجا فكَّر، وحاول الوصول إلى ما يريد، وإننا نسأل : لِم ينشا الاقتراض ويوجد فى اللغة ؟ هل هو وليد الحاجة تقتضيه اللغة، وتفرضه الضرورة وتحتمه الظروف أم يؤتى به ترفاً وتسلية؟

ولتوضيح هذا لابد من القول: بأن الحاجة تدفع وتلزم، واللغة لابد أن تستجيب ولا تنحجر، وتوفى بالمطالب والاحتياجات ولا تتعثر، ولكن كيف والمستحدثات والاختراعات كل يوم تجد وتبتكر وتنتقل من دولة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر، أكان فى علم اللغة وخاطرها ما يخبئه القدر وما تجود به يد الغد، وما تأتى به الحياة من ابتكارات البشر؟

وأمام هذه المخترعات والمستحدثات الوافدة عليها فإن اللغة أولا تلتمس الطريق بين سهولها ووديانها، ونجادها ووهادها، وإذا لم تجد ما تطلقه على هذه المستحدثات والمخترعات فما عليها إلا أن تمد يدها لغيرها تقترض منه ما ينقصها.

وقد كان هذا شأن العرب لقد دفعتهم الحاجة إلى أن يأخذوا من غيرهم، فاللغة العربية اقترضت عدداً غير قليل من الألفاظ الدالة على الزينة، وأدوات الترف من اللغة الفارسية[1] حيث إنها أمة اعتادت حياة الصحراء، ففنيت لغتها بوصف البادية، وما تقع عليه عين العربى من الصيد والنوق، بينما اضطرت إلى اقتراض الألفاظ التى كانت فى حاجة إليها

---

١) فقه اللغة ٢٠٦ وافى.

كأدوات الأكل والشرب والترف، كما لجأت إلى الاقتراض فى المعانى الفلسفية والعقلية، وفى الوقت الذى كانت فيه تقترض كانت تقرض فكما أخذت أعطت، إنها غنية بالمعانى الوجدانية والمفاهيم الشرعية والنفسية.

ومثل هذا حدث فى اللغة الإنجليزية فقد كانت ضحلة المادة، فقيرة المفردات فيما يتعلق بأدوات الطهى والطبخ، وشئون الطعام، ولهذا لم تر غضاضة فى أن تأخذ من النورماندية -عندما أتيحت لها الفرصة- تكمل به نقصها وتسد حاجتها فان اللغة إما أن تستجيب لمطالب الإنسان وتزوده بما يحتاج إليه من وسائل التعبير، وطرائق التفاهم، وإلا فإنها تمحى وتندثر، وتضيع فى زوايا النسيان، وتهجر وتموت كما سبقها إلى ذلك المصير غيرها من أخواتها اللواتى عجزن عن مسايرة الزمن، ومتابعة التطور.

وأن اللغة الحية هى التى تتحرك بحركة أهلها، ثم تعود فتحركهم، وتنمو نموا متواصلا بالوضع والنقل والاستعارة والتعريب، والاختيار وما إلى ذلك من أسباب التكيف الحى والنشاط الفعال.[1]

ومن ثم كان الاقتراض أمرا حتميا، تمليه الظروف وتفرضه الاحتياجات ويندر أن يحدث اقتراض للترف والتسلية.

ثالثا: انواع الاقتراض:

الاقتراض نجد له نوعين:

الأول : الاقتراض الداخلى أو المحلى: وهو ما تقترضه اللغة المشتركة أو اللغة المثالية من اللهجات الأخرى التى تنتمى إليها كما هو الحال بالنسبة إلى اللغة العربية الأدبية، فقد انتقت كثيرا من ألفاظها واختارت العديد من مفرداتها، واقتبست قدرا كبيرا من كلماتها من اللهجات العربية الأخرى، وإن ما يحدثنا عنه ابن جنى من تداخل

---

١) اللغة والتجدد، لعبد القادر الكرمانى، المقدمة بقلم الدكتور/ عبد الرحمن بك الشهبندر.

اللغات[1] ليس فى حقيقته إلا نوع من الاقتراض، تقترض اللهجة من لهجة أخرى.

ومن الاقتراض الداخلى أيضا ما تستعيره اللغة من اللهجات الإقليمية أو اللهجات الخاصة كلغة الصالونات، وثكنات الجيش[2]، وما أمر المولد .. والمحدث فى العربية عنا ببعيد.

ثانيا: إذا لم تكتف اللغة بالطريق الأول، ووجدت نفسها فى حاجة اتجه المتكلمون بها إلى الاقتراض من لغات أخرى، مختلة المشارب وهذا النوع شائع وكثير الانتشار، وحسبك ما فى العربية من كلمات تنتمى إلى لغات أخرى، وما فى تقارض اللغات بعضها من بعض.

آراء العلماء فى الاقتراض:

اتضح لنا مما سبق أن الاقتراض أمر واقع لا محالة، ونريد أن نتبين رأى العلماء فيه وإزاء هذه المحاولة نجد أننا أمام طريقين:

(١) البحوث القديمة:

التى كانت فى وقت مبكر، حيث لم تصل النهضة اللغوية آنذاك إلى مرحلة متقدمة، وإنما كانت تدور حول نشأة اللغة ودلالة الألفاظ وإيماءاتها، وكانت اقرب إلى البحوث اللاهوتية التى تبحث فى الغيبيات وفيما وراء الطبيعة، وفى هذه المرحلة لم يتجه العلماء إلى بحث التأثير والتأثر بقدر ما اتجهوا إلى التفضيل بين لغة وأخرى . فادعى الصينيون الخلود للغتهم، ونادى الأرمن بأن لغتهم صاحبة الشرف والسيادة، وغيرها فروع عنها، وتوابع لها، فهم – حسب ادعائهم ورثة لغة آدم الأولى، لأنه نشأ فوق أرضهم ويتصل بتربتهم، وقال العبرانيون: إن لغتهم هى الأولى باتين

---

١) الخصائص ١/٣٧٤.

٢) اللغة فندريس ٢٤٤، ٢٩٨.

دعواهم على ما جاء فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين[١] من أن الإله احضر كل حيوانات البرية وطيورها إلى آدم فدعا آدم بأسماء جميع الحيوانات والطيور فهم يقولون: إنه دعا بلغتهم بعد أن علمه الله إياها وجاء الآراميون فنادوا بشرف لغتهم، وأنها لغة الأسفار المقدسة فقد كتبت بها الأسفار الخمسة[٢]، كما اعتقد الإغريق[٣] الشرف والمجد للغتهم فهى – فى رأيهم – ذات أفكار فذة وعبقرية خارقة بل تغالى بعضهم فزعم أنها مرآة تعكس نظام الكون الإلهى.

ثم تلا هؤلاء جميعا العرب فاعجبوا بلغتهم وسحرهم بيانها، ورأوا من اللطائف والدقائق ما يحير العقول ويسمها بميسْم غيبى وسر خفى، ولذا فقد أخفوا عليها كثيرا من الصفات، فهى لغة آدم وهى عند بعضهم توقيفية لا إرادة فيها ولا اختيار، بل أن ابن فارس قال: إن الخط توقيفى[٤] أيضا، وفى سبيل ذلك اخذوا يؤولون النصوص بما يؤيد نظرهم، حتى إن ابن جنى وهو من أئمة اللغة وفحولها، وصاحب النظريات الأصيلة التى تدل على العمل والاستقراء –لم يسلم من هذا– فهو لا يمانع أن تكون اللغة توقيفية أيضا، يقول: "وأعلم أننى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى، مختلفة جهات التقول على فكرى، وذلك أننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك على جوانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوه السحْر، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت تتابعه وانقياده، وبعد مراميه وآماده، صحة ما وفقوا لتقديمه منه، ولطف ما اسعدوا به وفرق لهم عنه

---

١) الآية ١٩، ٢٠.

٢) فقه اللغة المقارن، د. إبراهيم السامرائى، التطور اللغوى التاريخى، ص١٤.

٣) نظر الأحكام: أصول الأحكام لابن حزم، ٣٣/١.

٤) الصاحبى ٧، وتنظر مجلة مجمع اللغة العربية ٣٥٢/١.

واتضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعز، فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه - وأنها وحى"[1].

والمتتبع لأخبارهم يحس من خلالها أنها لغة أهل الجنة بها كان يتكلم آدم فلما عصى ربه سلبها منه، وأبدله لغة أخرى غيرها هى اللغة السريانية، فلما رجع وتاب عادت إليه العربية مرة أخرى[2].

وكان من نتيجة ذلك أن اخذوا يتمدحون بها ويكيلون الثناء لها، وأنها فاقت كل اللغات بحسن تعبيرها وجمال اسلوبها، ورشاقة ألفاظها وحسن نسقها وبنائها وأحسبها كذلك.

ومن الطبيعى - نتيجة للتحليل السابق- أن يكون هناك نوع من الآنفة والكبرياء وترفع عن تبادل التأثير والتأثر بين اللغات، فالذى يدعى للغته السيادة، وأنها صاحبة الشرف لا يقبل بطبيعة الحال أن يؤثر غيرها فيها وأنها فى حاجة إلى ما سواها.

وربما كانت الدراسات العربية الإسلامية فى عصورها الأولى على جانب من المرونة والتسامح -والفضل فى ذلك يرجع إلى الدين الإسلامى وما أضافه على النفوس من سماحة وإنسانية- ومن ثم لم يرفضوا فكرة اخذ العربية من غيرها على تعدد فى وجهات النظر لما أخذ- إلا أنها كانت دراسة تتناول جانبا واحدا، ولم تأخذ الأمر على انه ظاهرة من الظواهر أو ضرورة من الضرورات.

(٢) البحوث الحديثة:

ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أخذت كالبحوث اللغوية تنمو وتتقدم، ونالت عناية فائقة، وحظيت باهتمام كبير، واحتلت مكانة مرموقة ووضعت الفروع، وقد اختلفت وجهة النظر نحو اللغة

---

١) الخصائص، جـ١، ص ٤٠.

٢) المزهر السيوطى، ١/٣٠، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين.

عن النظرة القديمة اختلافا كبيرا، وانقلبت الأمور رأسا على عقب، فاللغة كائن حى، يتكاثر وينمو، ويحيا ويموت.

ثم هناك علم اللغة وفقه اللغة، والسيمانتيك[١]، السيمولوجيا[٢]، والفيلولوجيا[٣] إلى غير ذلك من أنواع الدراسات اللغوية.

وفوق ذلك اللغة ظاهرة اجتماعية كالعادات والتقاليد والأزياء، ومرافق العيش بها تستقصى الملامح المميزة لكل مجتمع، والسمات الموضحة لكل بيئة ومن ثم فاللغة خاضعة للحياة فى تطورها الذى لا ينتهى[٤].

وما دام الإنسان كائنا اجتماعيا يتبادل المنافع ويتناقل طرق العيش، ويتقارض النظم والوسائل فليس بدعا -إذن- أن تتبادل اللغة التأثير والتأثر، والاقتراض والإقراض.

أن تبادل التأثير والتأثر بين اللغات قانون اجتماعى إنسانى، وأن اقتراض اللغات من بعضها ظاهرة إنسانية أقام عليها فقهاء اللغة المحدثون أدلة لا تحصى[٥].

---

١) علم الدلالة أو دراسة المعنى.

٢) السيمولوجيا: أى علم العلامات من الكلمة اليونانية Semelon بمعنى علامة، ويعنى دراسة استعمال العلامات الاصطلاحية ووظيفتها فى المجتمعات "ينظر علم اللغة ٦٣ وما بعدها" محمود السعران.

٣) الفيلولوجيا: تعنى دراسة النص القديم، اعدادا علميا للنشر، وتشبه ما يعرف عندنا بتحقيق النصوص المتعلقة بالتراث.

٤) اللغة لفندرس ٦.

٥) دراسة فقه اللغة، الدكتور/ صبحى الصالح، ص٣١٥.

العوامل التى تؤدى إلى الاقتراض

عرفنا فيما سبق أن اللغة ظاهرة من الظواهر تخضع لناموس الحياة، وتساير عوامل التطور وتتبادل التأثير والتأثر، وهى لهذا يطرأ عليها التغيير والتبديل، فألفاظ تموت، وألفاظ تحيا، وثالثة تهجر ورابعة تذيع وتنتشر، وخامسة تجد وتستحدث وسادسة تمحى وتندثر، ومن ثم كان على الباحث اللغوى أن يراعى اعتبار التطور فى اللغة، والقوانين التى يخضع لها هذا التطور، ومن خلال هذا التصور العام سنتناول العوامل كالتى تؤدى إلى الاقتراض، وتتيح له الوجود، وتسهل له الطريق، ويمكن أن يجمل ذلك فيما يأتى:

- من المعروف بين علماء اللغات أن التقاء أية لغة بأخرى فى أى بلد من البلاد وبأية وسيلة من الوسائل، وعلى أى كيفية من الكيفيات، مثل هذا الالتقاء، يحدث تأثيرا، ويؤدى إلى نتائج تتعلق بهاتين اللغتين، فيؤدى مثل هذا إلى الاقتراض.
- لما كان من المتعذر أن تظل لغة بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى لذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للاقتراض والاقتباس عن هذا الطريق وصور هذا الالتقاء كثيرة منها:

١) الجواريين الشعوب[١] وما يتبع ذلك من تبادل المنافع، وتقارض الوسائل وقد تجاور العرب والفرس قديما فأدى ذلك إلى اقتراض العربية مفردات من الفارسية والعكس، ومثل هذا حدث بين الجرمانية واللاتينية.

وقد انتقل من الفرنسية إلى الألمانية الحديثة كثير من المفردات كنتيجة لجوار الشعبين، وكذلك الإنجليزية والفرنسية الحديثتين تتقارضان وتستعيران بعضهما من بعض لجوار شعبيهما.

وفى العصر الحاضر أدى تجاور فارس والعراق إلى اقتراض كل من

---

١) علم اللغة أوافى: ٢٤٠ وما بعدها.

لغتيهما اقتراضاً يتعلق بالمفردات والقواعد والأساليب.

٢)قيام العلاقات الاقتصادية بين شعبين تختلف لغتهما مما يؤدى إلى تبادل المفردات واقتراض اللغتين بعضهما من بعض حيث إن لكل أمة منتجات وصناعات، إذا ما انتقلت إلى البلد الآخر حملت اسمها معها، فيشيع الاسم، وتتناوله الألسنة.

٣)قيام العلاقات الثقافية، إذا كانت العلاقات الاقتصادية تؤدى إلى الاقتراض فى المفردات فإن العلاقات الثقافية، تتجاوز المفردات إلى التراكيب والأساليب، ذلك كما نرى ونشاهد فى لغة الآداب والعلوم والفنون، والصحافة التى تأثرت إلى حد كبير بالأساليب الأوربية.

٤)الاشتباك فى الحروب لفترة طويلة مما يتسبب عنه نقل مفردات من كلتا اللغتين كما حدث أيام الحروب الصليبية، فقد نقل كثير من الألفاظ إلى اللغات الأوربية فى اللهجات العربية، بل إن بعض الكلمات استعملت فى المعاهدات الرسمية مثل "Term" التى تعنى المدة أو الأجل فقد جمعت على "تروم" بوزن "فعول"[1].

وفى الحرب العظمى تقارضت الإنجليزية والفرنسية والألمانية من بعضها على انه مما تجدر كالإشارة إليه أن التأثير لا يأخذ وضعا واحدا بل يتغير قوة وضعفا، وتكثر صوره ومظاهره وتنشط حركة الاقتراض كلما طال الاحتكاك، واشتد النزاع، وتقل الآثار كلما قصرت مدة الاحتكاك، وكان النزاع ضعيفا فاترا، كما أن توافق العائلة اللغوية ييسر الاقتراض، ويسهل الطريق أمامه كما سيأتى والى جوار ما سبق هناك عوامل أخرى تؤدى إلى الاقتراض منها:

١)العوامل الدينية: فالأمم التى اعتنقت الدين الإسلامى، ودخلت فى حوزته لم تجد مانعا من أن تقترض من العربية ألفاظا مثل الصلاة الحج ...

---

١) المباحث اللغوية فى العراق، ١١٨ مصطفى جواد.

وغير ذلك من المفاهيم الشرعية.

٢)الاختراع فى أحد البلاد كما اخترع "ماركونى" الإيطالى "الراديو" فقد تلقفته الأمة الإيطالية بالسرور والابتهاج، وشاع بينها، وعنها أخذته باقى الأمم بدون أن ترى فى ذلك حرجا أو ضيقا ومثل هذا حدث بالنسبة للتلفزيون.

٣)وأحيانا يكون الإعجاب باللفظ الأجنبى كما نشاهد على ذلك فى كثير من الألفاظ الأجنبية الشائعة على الألسنة مثل "مرسيه" هذه فكرة عن العوامل التى تؤدى إلى الاقتراض من لغة إلى أخرى، مما يكتب لألفاظ اللغة المقرضة الشيوع والانتشار.

النظرة العلمية للاقتراض

ليس من الجديد القول بأن اللغة هى الوسيلة الأولى التى يتبادل الناس بها معلوماتهم ويتفاهمون بها فى ظل شئونهم، فهى تظهر المجتمع الإنسانى بصورته الحقيقة، وبالتالى هى وثيقة الصلة بين الإنسان وبيئته.

فهى أساس كل أنواع النشاط الثقافى[١]، فهى ليست وسيلة للنشاط الثقافى بل أنها أساس له، فهى فى كل مجتمع تقوم بالدور الأكبر، ففى كل مجتمع مهما كانت طبيعته وسعته تلعب اللغة دورا هاما ذا أهمية أساسية إذ هى اقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع[٢]، وهى فى الوقت نفسه رمز لحياتهم المشتركة، وضمان لها.

وما ينبغى أن يكون واضحا فى الأذهان أن اللغة ليست رابطة بين أعضاء معينين، أو جماعة خاصة، أو مجتمعا بعينه فقط، إنما تتعدى ذلك وتتجاوزه إلى الربط بين جيل وجيل، ومجتمع ومجتمع، بل إنها تربط بين

---

١) فقه اللغة المقارن، ص٢٢٩.

٢) اللغة لفندرس، ص ٣٠٣.

أفراد الجنس البشرى بأثره، مهما اختلفت عقولهم وتباينت أفكارهم وتنوعت أساليب حياتهم، بل وتعددت لهجاتهم ولغاتهم.

ثم انه لا يفوتنا أن ننبه إلى أن اللغة من صنع النـاس، يضعون لها المقاييس التى تجرى عليها ألسنتهم، والمقاييس ليست شيئا ثابتا لا يقبل التغيير أو التعديل، فما يرتضى اليوم قد يرفض غدا، وما يكون مستساغا فى الوقت الحاضر قد يكون فى المستقبل شيئا منبوذا، وما ذلك إلا لأن المجتمع الإنسانى متغير ومتطور لا يثبت على حال، حتى مقاييس الفضيلة والأخلاق قد تتأثر بصورة المجتمع.

ونتيجة لما سبق ليست هناك لغة ولدت كاملة ليست فى حاجة إلى غيرها من بنى جنسها وما اجمل ما يقوله "فندرس" فى هذا الشأن من العبث أن نؤكد الفرض القائل بأن هناك لغة كاملة قُدَّت فى عهد سحيق وفرض خيالى محض، شأنه شأن الفكرة القائلة بأنه يمكن أن توجد لغة لا تتغير، وتبقى جامدة فى سكونها أبد الآبدين، يجب أن نسلم بالتغيير لأنه أمر حتمى[1].

وقد أردنا مما سبق أن نوضح أن المجتمع الإنسانى مجتمع يتقارض الثقافات كما يتبادل المنافع. ووسيلته فى كل هذا: اللغة، ومن ثم كانت اللغات متداخلة ولعل من دلالة الحيوية فى اللغات أنها تتقبل من غيرها من اللغات كلما جدت الحاجة إلى هذا.

والمتتبع لتاريخ الشعوب يرى أن اللغات أخذت بعضها من بعض بدون أن ترى فى ذلك حرجا، فاللغة العربية دخلها الكثير من أصول لاتينية وفارسية وإغريقية. عدا ما دخلها من أسرة اللغات السامية، وبالتالى أمدت العربية اللغات الأخرى بكثير من موادها فى شتى عصورها وليس أمر الدخيل فى الفارسية والتركية ببعيد، بل إن اللغات الأوربية فى ظروف

---

١) اللغة لفندرس، ص٤١٩.

متأخرة أخذت كثيرا من العربية، ويستطيع الباحث تتبع ذلك "يستطيع الباحث أن يحصى مواد عربية فى كثير من اللغات الأوربية الحديثة، أخذتها هذه اللغات من العربية مباشرة دون أن يكون هناك حلقة مفقودة أو وسيط لاتينى أو اغريقى"(١).

بعد كل ما قدمنا يمكننا القول: بأنه لا ضير من اقتراض اللغات بعضها من بعض بل إن ذلك ظاهرة طبيعية، تقرها الأسس العلمية، وترتضيها القوانين الاجتماعية، بل تحتمها ضرورات الحياة، وشئون المجتمع، ولهذا لا يمكن رفضها، ولعل اصدق دليل على ذلك أن علماء المسلمين حين فرضت عليهم علوم القرآن، تتبع ألفاظه الغريبة مستعينين فى ذلك بمنظور العرب ومنثورها، قد انتهى بهم البحث إلى أن فى لغة القرآن كلمات أعجمية الأصول، وإن كانت عربية الألفاظ ولم يجد أبو حاتم بداً من الاعتراف بأنه وقع فى القرآن الكريم من كلام العجم"(٢).

ولكى ندرك أن الاقتراض فى اللغة أمر كطبيعى علينا أن نتذكر أن نصف الألفاظ الفارسية تقريبا مأخوذ من العربية، وأن نصف ألفاظ اللغة التركية مستعار إما من الفارسية وإما من العربية، وأن ثلث اللغة الإنجليزية هو الذى يعتبر ألفاظا أصيلة تعود إلى اصلها السكسونى"(٣).

ويذكره "Marino" فى كتابة "قصة اللغة" أنه تتناول معجما فرنسيا عدد كلماته "٤٦٣٥" وصنفها حسب الاصل اللغوى الذى تنتمى إليه فوجها سبعة عشر نوعا على النحو التالى(٤):

---

١) فقه اللغة المقارن، ص١٦٥، إبراهيم السامرائى.

٢) كتابة الزينة لأبى حاتم، ١٩/١، ط ١٩٥٧.

٣) دلالة الألفاظ للدكتور/ ابراهيم أنيس، ص١٥١، ط٢.

٤) دلالة الألفاظ، ١٥١، ط٢.

عدد الكلمات	نوعها	عدد الكلمات	نوعها
٢٠٢٨	من أصل لاتينى	٣٦	عبرية
٩٢٥	يونانية	٩٩	من اللغات الاسيوية
٦٠٤	المانية	٦٢	من اللغات الامريكية الهندية
٩٦	كلتية	٦	من لغات افريقيا
١٥٤	إنجليزية	٢	من اللغات البولينيسية
٢٨٥	ايطالية	٣٤	تركية
١١٩	اسبانية	٢٥	سلافية
١٤٦	عربية	٤٠	برتغالية
١٠	برتغالية	٤	هنغارية

ومعنى هذا بجلاء أن اقتراض اللغات بعضها من بعض أمر حتمى لابد منه يسير مع اللغة جنبا إلى جنب فى شتى عصورها، تأخذ وتعطى، تستعير وتعير، تقترض وتقرض متى تسير لها ذلك. والذى يريد للغته أن تظل بمنأى من غيرها ظانا بذلك أنها تعرب عن خصائصها الذاتية، وأن ادخال أى جديد يفقدها خصائصها، أو يشوه محاسنها إنما يريد للغته أن تموت، إذ كيف يحول بينها وبين غيرها، وتبادل التأثير والتأثر قانون اجتماعى إنسانى "اقتراض اللغات بعضها من بعض ظاهرة إنسانية"كما سبق القول ويقول ماريوباى: أعظم مصدر لنمو اللغة هو الاقتراض من لغاتك اخرى[1].

اللغة بين الاستغناء والاحتياج

إننا فى هذا الفصل سنبين موقف اللغة من استغنائها عن الاقتراض، وبالتالى هل تعتبر اللغة المقترضة عاجزة، ولتفصيل ذلك سنتناول الموضوع من نقطتين:

---

١) اسس علم اللغة ١٥٦.

الأولى:

هل اللغة المقترضة عاجزة، إن اللغات المنطوقة على وجه البسيطة تقرب من حوالى ٤٠٠٠ لغة ويقدرها البعض بحوالى ثمانية آلاف[١]، ولكن اللغات المكتوبة التى لها صورة كتابية لا تتجاوز نسبتها ٥٪ من مجموع اللغات المستخدمة بين شعوب الأرض، وعلماء اللغات -بطبيعة الحال يعنون باللغات المنطوقة خاصة وأن الكتابة ظهرت فى وقت متأخر عن لغة الكلام.

واللغات الإنسانية - على تعددها - مرت بمراحل كثيرة من التطور والنمو فى ألفاظها ومعانيها، وكل مجتمع من المجتمعات يتخذ لغة من هذه اللغات يتفاهم بها فيما بينهم ويتبادل بها الأفكار المعلومات وهى مهما قلت مفرداتها وتراكيبها قادرة على إيجاد التفاهم التام بين أفراد هذا المجتمع، وإذا قمنا بتحليل لغة الإنسان البدائى الذى يعيش فى المجاهل، أو يسكن الأصقاع النائية فى القطب الشمالى أو الجنوبى فإننا نجد أنه يملك لغة - يستعملها أفراد مجتمعه بينهم- غنية بالتعبيرات والتراكيب التى تمكنهم من التفاهم فيما بينهم.

والشعوب لديها من اللغات عما تعبر به عن احتياجاتها، بل إن اقل شعوب الأرض .. حضارة يملك لغة حافلة بالتراكيب والتشبيهات والصور الفكرية بما لا يقل عن اكثر اللغات الحية شيوعا، وأغناها ألفاظا، كما يقول العالم الأمريكى "ادوارد سابير"[٢].

ومن هذا يبدو واضحا أن أية لغة بها ما يكفى لسد حاجة أفرادها ولكن نظرا للترابط الذى يربط بين أفراد المجتمع الإنسانى كله كان لابد للغة من أن تتأثر بغيرها فتقترض وتقرض، ومثل هذا ليس عجزا أو تقصيرا ينسب للغة، إنما هو أمر طبيعى مثله مثل الأفكار والثقافة والأزياء، ووسائل

---

١) مدخل إلى اللغة، ١٠٣، د. محمد حسن عبد العزيز.

٢) اللغات الأجنبية ودورها فى المجتمع الثقافى الجديد، د. نعيمة محمد عيد، ١٥.

الحياة، ومن المعروف أن الإنسان لا يكون حضارة من جديد ولا يبدأ الشوط من أوله، وإنما الحضارة امتداد لما سبق وتحسين لما مضى، فالأفكار تستمد من الغير، والإنسان لا يوجد ومعه أفكاره، كما لا يولد ومعه لغة، وإنما يستمد هذا من مجتمعه وبيئته، وما تحيط به، لأنه هذه الأشياء بما فيها اللغة مكتسبة، واستفاد منها الإنسان بعد أن بلغ شوطا معينا من القدرة على التحصيل والاستيعاب، ومن ثم لا يمكن القول بأن اللغة التى تقترض من غيرها عاجزة، وإنما هى فى هذا تجرى على سنن الحياة وقوانين التطور، فاللغة العربية مثلا عندما اقترضت من اللغات الأخرى ما يتعلق بوسائل الترف والمدركات الكلية والمعنويات العامة كانت لغة -كما يقول بروكل مان؛ وهى مع واقعيتها التامة فى وصف الأشياء تتأجج بروحانية تمكنها من التعبير عن أدق أحاسيس الحب، وكذلك عن اقوى خوالج الشعور بكرامة الرجولة"(١).

فاى عجز فى لغة كهذه لا سيما إذا عرفنا أنها غزت الكثير من اللغات الاخرى بمادتها.

اللغة الألمانية تملك فعلا واحد هو "Lehnen" للتعبير عن: يعبر ويستعير اللذين تملكهما الفرنسية، بينما الفرنسية لا تملك إلا فعلا واحدا هو "Louer" للتعبير عن: يؤجر ويستأجر اللذين تملكهما الألمانية فهل يصح إذن القول بأن هذه افضل من تلك؟

أن اللغة المثالية صاحبة المثل الأعلى ، والكاملة فى كل شىء ليست إلا فكرة فى الذهن، ومثلا يبحث عنه، ولكن لا يمكن العثور عليه وكل ما يمكن قوله إن درجة قابلية اللغة للاقتراض تتفاوت، لأن اللغات الإنسانية ليست على درجة واحدة من الرقى، وإنما تختلف فى ذلك تبعا لظروفها وعوامل نشأتها، فهناك اللغة صاحبة الخصائص الفذة، والثراء العريض،

---

١) تاريخ الادب العربى، حـ١، لبروكلمان.

والقدرة الفائقة والسمات البارزة، والشخصية الواضحة، والكيان اللغوى وتبعا لقوة اللغة وضعفها يختلف اثر الاقتراض فيها.

النقطة الثانية:

هل يمكن للغة أن تستغنى عن الاقتراض؟ لقد وضح مما سبق من حديثنا عن الاقتراض ما يلى:

١)أن الاقتراض ظاهرة لغوية عامة تمارسها كل اللغات وإن اختلف القدر المقترض، وتباينت الطريقة التى اتبعت فى ذلك.

٢)أن اللغة التى تقترض من الأخرى ليست عاجزة وغير قادرة على الوفاء بحاجات من يتكلمون بها.

وبعد ذلك نسأل: هل يمكن لأية لغة أن تستقل استقلالا تاما وتستغنى إن غيرها؟

وللاجابة على هذا السؤال لابد من معرفة حقيقة هامة وهى أن اللغة تسير فى طريق تطورى، بل إن التطور يعتبر اصيلا بالنسبة لها ومن المعروف أن طبيعة التطور هو الوجود البسيط أولا ، ثم النمو الارتقاء بعد ذلك، وهذا التور تحكمه الظروف.

والنمو اللغوى أو الزيادة فى اللغة لا يوجد إلا عند الداعى إلى ذلك كما يرى أبن جنى أن الزيادة تأتى عند الحاجة إليها[1]. لأن أية لغة لم تظهر خلقا سويا مستقلا، بل لابد لها من التغير والتحول والسير فى طريق التطور وقد تحدث علماء اللغة المحدثون عن اللغة وتطور اللاغى نفسه، ومع تطور اللاحق تفعل الحياة فعلها فى اللغة تبعا للظروف المادية والمعنوية، فالظروف الطبيعية، والظروف النفسية والعاطفية والظروف الاقتصادية ونظام الحياة التى يحياها الناس. وما عليه حكوماتهم وما لهم من اتجاه إلى العلم والفن، واللهو والجد. وما لهم من عادات ورثوها عن اسلافهم. كل

---

١) الخصائص ٢/٢٨.

ذلك لابد أن .. يحدث أثرا فى اللغة، ويؤثر فى مجالاتها المختلفة "حيث أنها أدق الظواهر الاجتماعية وأسرعها تغيرا، واحسها تاثرا ، فكل نبأة وهمسة فى حياة الجماعة التى تتكلم لغة تترك اثرها فى هذه اللغة المتكلمة ، وتغير من حالها، وتحدث اثرها فى تطورها"[١].

فاللغة إذن لم توضع دفعة واحدة وإنما تلاحق تابع منها بفارط[٢]، لن اللغة تتبع الحياة وليس العكس.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن تطور الحياة ونظمها يجد عليه الكثير، ومخترعاتها تتنوع وتزيد فترة بعد فترة، وبالطبع هذا الرقى والنماء لا يتم فى كل البقاع بدرجة واحدة، كما أن بعضه يوجد فى منطقة بينما الأخرى تخلو منه. وتضويحا لذلك شبه الجزيرة العربية فى أيامها الصحراوية كان ينقصها ادوات الزينة ووسائل الرفه، ومن ثم لم يوجد بها مسميات لهذه الأشياء فكان لزاما أن تقترض العربية ما ينقصها لتضيف إلى قائمتها جديداً، وفى عصرنا الحديث نرى كثرا من الكلمات الأجنبية قد دخلت لغتنا وخاصة ما يتعلق بالعلوم ومصطلحاتها، والفنون ومسمياتها، فهذه وأمثالها دخلت اللغة العربية عملا بناموس الارتقاء والنمو كما يصيب سائر لغات العالم[٣].

توافق العائلة اللغوية وأثرة فى الاقتراض

يقسم علماء اللغات؛ اللغات الإنسانية على أساس التقارب والتماثل والتشابه فى قواعد البنية والتركيب إلى عائلتين:

١) العائلة أو الفصيلة الهندية الأوربية.

---

١) مشكلات حياتنا اللغوية ٦٢، للأستاذ/ أمين الخولى، ط٢، ١٩٦٥، دار المعرفة.

٢) الخصائص، حـ ٢/٢٨.

٣) الهلال ٢٣٧، يناير ١٩٠٨.

٢) الحامية السامية.

ويزيد "ماكس" قسما آخر: المجموعة الطورانية[١].

وهناك طريقة أخرى لا تعول على صلات القرابة السابقة بل تعتمد على أساس وسائل بناء الكلمات وتوليدها[٢].

وتنقسم إلى: ١) اللغات التحليلية. ٢) الإلصاقية. ٣) العازلة.[٣]

ولكل أسرة لغوية خصائصها فالأسرة السامية لها مميزاتها: فهى تعتمد على الأصوات الساكنة "Consonants"، والاصوات المتحركة "Vowels" كما أن الفعل يبرز فيها بروزا ظاهراً، ويحتل مكانا واضحا ولذا تصاغ منه المواد اللغوية المختلفة ويضاف إلى ذك أن طابعها العام يشير إلى الصحراوى والبدوى، كما أن فكرة الجنس فيها تنقسم إلى : مذكر ومؤنث هذا إلى اشتمالها على ظارهة العدد من حيث المخالفة والموافقة للمعدود وهو ما فسر بمبدأ الاستقطاب هذا إلى تشابهها فى نظامها النحوى والصرفى والفاظها الكثيرة المشتركة كما تمتاز بندرة الألفاظ المركبة وكذلك الزمن واقرب اللغات إلى هذه العائلة الحامية ولهذا جعل بعض الباحثين اللغات الحامية واللغات السامية أسرة واحدة[٤].

أما اللغات "الهندو - أوربية" فها خصائصها المميزة فمثلا تقسم فكرة الجنس إلى ثلاثة: مذكر، مؤنث، محايد[٥].

---

١) دراسات فى فقه اللغة ١٢، د. صبحى الصاح ط٣.

٢) اسس علم اللغة، ٥٥، ماريوباى.

٣) مدخل إلى اللغة ١١١، د. محمد حسن عبد العزيز، علم اللغة ١٠٨، د. على عبدالواحد، اسس علم اللغة ٥٦، ماريوباى.

٤) دراسات فى فقه اللغة ٤٣.

٥) مدخل إلى علم اللغة ١٦٥، د. محمود فهمى حجازى، من أسرار اللغة ٩١، د. ابراهيم أنيس: ولمعرفة المزيد عن صلة اللغة بالجنس، ينظر كتاب "اللغة واختلاف الجنسين" د. أحمد مختار عمر.

كما أن الزمن فيها محدد تحديدا دقيقا وغير ذلك من المميزات الخاصة بها، وبعد الدراسة استطاع باحثو اللغات البشرية أن يقسموها فى صورة فصائل وكل فصيلة ينتمى إليها عدد من اللغات ذات اصل واحد، وهى لهذا تتشابه فى كثير من عناصرها وفى هذه الحالة يمكن الجمع بين فروعها دون عناء كبير، أما حين تختلف الفصيلة ففى هذه الحالة يكون العنت والمشقة.

ومن المعروف أن التحول اللغوى سواء فى لغة الكتابة أم فى لغة الحديث يحدث شيئا فشيئا، فلا يحدث فى جيل واحد بل يمتد إلى اكثر من جيل، وتعتمد سرعة الانتقال أو التحول من لغة إلى أخرى على مجموعة عوامل منها: مدى القرابة بين اللغتين فالانتقال من لغة سامية إلى لغة سامية أخرى أمر ميسور، ولذا فقد تعربت منطقة الشام والعراق فى مرحلة مبكرة فقد كانت اللهجات الآرامية هى السائدة وهذه اللهجات قريبة من العربية لانتمائها إلى اصل سامى، بينما لم يكن الانتقال من القبطية أو البربرية إلى العربية أمرا سهلا، ولذا تم تعريب مصرفى فترة استمرت زمناً.

ومن هذا يظهر جليا أن اتفاق الفصائل اللغوية ذو اثر فعال فى الانتقال من لغة إلى أخرى.

وبعد هذا العرض يبدو واضحا أن تشابه الفصيلة يسهل عملية الاقتراض، لأن الكلمة أو الصيغة يكون فيها تقارب بين اللغتين المقترضتين المتشابهتين ومهما بدا فيها من بعد وتغيير فإنها لا شك أدنى منزلة، وأقرب حالا، لأنه إذا وجد التوافق اللغوى كانت الكلمة أخف وكان من السهل تذوقها وهضمها، أما إذا كان هناك تخالف فى الفصيلة فإن الكلمة تكون غريبة وتحتاج إلى مدة -وربما إلى صقل وتغيير حتى تكون مستساغة لدى المتكلم.

ومن هنا نرى أن الاقتراض يكثر بين الفصيلة اللغوية الواحدة فالفرنسية مثلا قد اقترضت من اللاتينية قدراً كبيراً، والسبب فى ذلك أنها

من نفس الفصيلة، كما نجد فى العربية كثيراً من الكلمات التى تنتمى إلى أصول ولغات سامية، والأمر كذلك بالنسبة للقواعد وبنية الجملة، فالسورى أو العراقى عندما يتكلم بلهجته قائلا: "شفتو لاخوك أو لخيك" فإنه يتكلم لهجة تراكيبها سريانية فصيحة وإن كانت عربية المفردات، وعندما ينطق بعض اللبنانيين الضمير العربى "أنا" فإنما يلفظه بصيغته السريانية، ومثل هذا التأثر نجده فى اللغات التى تشعبت عن اللاتينية، فكثيراً ما تستعير اللغة من اللاتينية طريقة الجمع أو طريقة الاشتقاق أو الدلالة على اسم الفاعل أو المفعول وغير ذلك.

وحين تختلف الفصيلتان لا نجد أثر الاقتراض فى القواعد أو التراكيب كما هو الحال بالنسبة لاحتكاك العربية بالإيرانية نظرا لانتماء كل منهما إلى عائلة لغوية تخالف الأخرى ، وإن كان أثر التفاعل الحضارى قد ظهر فى اقتباس المفردات، فإن العربية اقتبست كلمات عديدة لها علاقة بالمطابع والمنزل والأثاث والرياش والدواوين الحكومية، والنظم الاقتصادية والعسكرية كما أن الفارسية تعج بكثير من المفردات العربية.

الاستقلال اللغوى: مفهومه – حدوده ومداه

إذا القينا نظرة على حال الأمم وجدنا أن بعضها يتمتع بالاستقلال وبعضها يعيش تحت السيطرة، والتبعية لدولة أخرى ، فالدولة التى تعيش مستقلة تعتمد على نفسها فى أغلب أمورها، واكثر شئونها، إلا انه من غير المستطاع أن تكتفى بمواردها ومنتجاتها. فهى محتاجة إلى اسواق خارجية تعرض فيها سلعها ومصنوعاتها، كما أنها بطبيعة الحال مدفوعة إلى شراء ما ينقصها سواء من المواد الخام أو المصنعة. هذا مع أن لها حدودا سياسية واقليمية تحدها طولا وعرضاً، كما أن لها طابعها المميز، وخصائصها النفسية والعقلية والاجتماعية والثقافية ... الخ.

إذا طبقنا مثل هذه النظرة على اللغة لنعرف حدودها التى تقف

عندها، ومداها الذى تصل إليه سنجد أن اللغة -بطبيعة الحال لها حدودها المميزة ولها سماتها الخاصة إلا أن هذه الحدود ليست ثابتة تماما. كما أنها لا تنتهى عند نقطة معينة إلا إذا اعتبرنا السمات البارزة والخصائص العامة.

وذلك انه بعد استعراض التوزيع اللغوى على الكرة الأرضية يتبين أن هناك ما يسمى بالجماعات اللغوية التى تجمع بينهم صفات وخصائص مشتركة، وهذه الجماعة اللغوية تسكن منطقة جغرافية تضيق هذه المنطقة أحيانا، وتتسع أحيانا أخرى، غير انه لا ينبغى الخلط بين الجماعة اللغوية والأمة أو الدولة بالمدلول السياسى، وذلك لأننا قد نجد دولة واحدة بالمعنى السياسى، ولكنها تضم اكثر من جماعة لغوية كما هو الحال فى سويسرا حيث يتكلم سكانها اللغة الفرنسية والألمانية، والإيطالية والرومانية، ولا يمنع من إطلاق اسم الجماعة اللغوية وجود صفات محلية خاصة بكل دولة "ففى كل جماعة لغوية مناطق صغيرة، أو بيئات قليلة العدد يتصف كل منها بصفات محلية، وهى التى يطلق عليها أحيانا اللهجات"[1].

ويظهر هذا بوضوح إذا نظرنا إلى البقاع التى تتخذ العربية وسيلة للتفاهم فيما بينها فإننا نجد صفات خاصة بكل بيئة، ولكن هذا لا يمنع من إطلاق اسم الجماعة اللغوية عليها.

إن اللغة واحدة -كما يقول فندريس- ولكنها فى الوقت نفسه[2] متعددة بتعدد الأفراد فلكل فرد صفاته الكلامية الخاصة، وكل أسرة أيضا لها مميزاتها وصفاتها الكلامية الخاصة وليست هناك حدود فاصلة أو نقاط ثابتة بين هذا الفرد أو هذه الأسرة ، وكل الذى يعنينا هو السمات والخصائص العامة. وقد نشأ عن ذلك ما يسمى باللغة المشتركة، فحيث وجدت جماعة،

---

١) مستقبل اللغة العربية المشتركة، ص١، د/ إبراهيم أنيس.

٢) اللغة ٢٩٥.

وقوى الاتصال بينهم، ونشأت علاقات ثقافية، وارتباطات مادية تكون لهم مع مرور الزمن لغة مشتركة، وقد يتسع نطاقها فيشمل عدة دول كاللغة الإنجليزية حيث تراها فى كثير من أمريكا، كندا، استراليا، إنجلترا.

ثم أنه من الممكن أن تحدد بداية الدولة ونهايتها فنعرف أن تبدأ جغرافيا وأين تنتهى، أما اللغة فليس فى الاستطاعة تحديد المنطقة المتكلمة فيها بصفة حاسمة بحيث تحدد بداية هذه اللغة ونهايتها تحديداً دقيقاً، إن هذا أمر يصعب إمكانه، ولن يقوم إلا على ضرب من الحدس والتخمين.

إذن تحديد البداية والنهاية بالنسبة للغة أمران فيهما كثير من الصعوبة إننا حين نتناول علاقات اللغات بعضها ببعض من ناحية استقلالها أو اتصالها، ثم مدى هذا الاستقلال وذاك الاتصال، فإن هذا يجعلنا نعالج الموضوع من ناحيتين:

الأولى: مدى الاتصال أو الاستقلال بين الفصيلة الواحدة:

أننا إذا حاولنا تحديد الاستقلال بين لغة الفصيلة الواحدة وجدنا أنفسنا أمام واقع لا يسمح لنا بالقول أن هذه اللغات تستقل استقلالاً تاماً:

أليست الكلمات الكثيرة المبثوثة هنا وهناك نجدها فى هذه اللغة كما نجدها فى تلك مع اتفاق فى المعنى أو انحراف عنه بالتخصيص أو بالتعميم، أو الجانب الصوتى، ثم أليست القواعد ونظام تركيب الجملة تتشابه إلى حد كبير؟ بل ربما تعدى الأمر اكثر من ذلك فوجدنا طرائق الاشتقاق بينها من الاتفاق قدر كبير.

ولنعرض بشىء من التفصيل حتى يتضح الأمر، ولنأخذ مثلا لذلك لغتنا العربية وصلتها بأخواتها الساميات فمثلا فى مجال المفردات نجد: (كفلين) هى فى الجشية بمعنى ضعفين، وفى العبرية بمعنى جزأين[1]،

---

١) الزينة ١/١٣٥.

و(حنـان) منسوبة إلـى العبريـة والسـريانية والعربيـة الجنوبيـة[١]، و(جنـة) منسوبة إلى العربية والجنوبية والآرامية والسريانية، والجشية[٢] وغير ذلك من الكلمات التى يعـج بهـا كتـاب الزينـة لأبـى حـاتم الـرازى ممـا يجعل مـن المشكل اعتبـار لفظـة معينـة ملكـا للغـة دون أخـرى إلا إذا اعتبرنـا الناحيـة التاريخية فقط هذا مع العلم "بأن الحكم بقدم لغة وحداثة أخرى، وبخاصة فى مجال اللغات العريقة جد عسير"[٣].

وإذا تركنا ناحية المفردات إلـى ناحيـة أبعد منهـا نجد هنـاك تقارباً كبيراً، فاسم الفاعل من الفعل الثلاثى على وزن "فاعل" بينما هو فى العبريـة على وزن "فوعيل" وهـو نفسـه وزن فـاعل مـع شـىء مـن الانحـراف نتيجـة للأثر الصوتى، فإن هنـاك اتجاهـا معروفـا هـو أن الصـوت (A) فـى العربيـة يقابله (Q) فى العبرية، ولهذا صارت الألف فى اسم الفاعل العربى إلـى واو فى اسم الفاعل العبرى ونتيجة للنبر الذى يلعب دورا هاما فى اللغة العبريـة زيدت "ياء" بعد العين ومثل هذا أو قريب منه فى الآرامية وفى جمع المذكر الذى يجمع فى العربية بياء ونون أو واو ونون نجده فى العبرية بياء وميم بينما هـو فـى الآراميـة بيـاء ونـون، ولسنا هنـا فـى مجـال المقارنـة، وإنمـا نعرض صوراً لما بين هذه اللغات من تشابه تعدى حدود المفردات وتركيب الجمل إلى النظام الصرفى، مما يجعلنا ندرك مـدى التشـابه القـوى بيـن هـذه اللغات لدرجة جعلت نولدكه يرى من الصعب أن نحكم بالاستعارة بينها "كلما قوى التشابه كان من الصعب جدا معرفة الكلمات التى أعارتها إحدى اللغتين للأخرى"[٤].

ولنـا الآن أن نتسـاءل: هل بعد مـا سبق يمكـن أن نقـول أن هنـاك

---

١) السابق ٢/١٢٢.

٢) السابق ٢/١٩٩.

٣) القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث، ٣٣١، د./ عبد الصبور شاهين.

٤) اللغات السامية ص١١.

استقلالا لغويا "تاما"؟ إن هذا يجرنا إلى سؤال ناجم عن التساؤل السابق: إذا لم يكن بين اللغات استقلال تام إلا يكون هناك اتفاق والتئام؟

إن الإجابة ببلى ليست أمرا مقبولا مع وجود الفوارق الصوتية والنحوية والصرفية بل مع "وجود البناء الاستقلالى للكلمات فى كل لغة قياسا"[١].

أننا قلنا أن هناك ألفاظا عربية كما هى سريانية، وعبرية، وحبشية، فإنه يجب ألا ننسى أن هناك ألفاظا كثيرة اتخذت صورا لغوية خاصة بكل لغة، وهذا فضلا عما اتجه إليه البحث الحديث من أنه لا يتأتى للغة أن تلد لغة أخرى[٢] وبالتالى فان القرابة اللغوية لا تعنى أبدا التبعية المطلقة.

٢) **الاتصال والاستقلال بين الفصيلة اللغوية المختلفة:**

الواقع أن المسائل اللغوية يحس المعالج لها فى كثير من الأحيان بالضيق والمرارة وذلك لما يجده من تشابه وتعقيد يجعل من الصعب إصدار حكم.

انه إذا كانت هناك قرابة بين الفصيلة اللغوية الواحدة فأية قرابة بين الفصائل المتعددة ولذا تظن -لأول وهلة وبدون تأمل- أن هناك استقلالا تاماً واضحاً، ولكن هذا الظن سرعان ما يتبدد إذا افترضنا أن الفصيلتين تجاورتا، سيقال أن هذا نتيجة للتأثير والتأثر، وبالتالى نقول: أنه لا حدود تفصل، ولا حواجز تمنع، وبذلك تصبح فكرة الاستقلال اللغوى التام خرافة من الخرافات، وأسطورة من الأساطير، ثم اليست اللغة ظاهرة إنسانية يَستعملها الناس كما يستعملون الوسائل الأخرى، أيا كان نوعها أو جنسها فيمكننا القول بعد ما أسلفنا أن نقول: أنه ليس هناك استقلال لغوى بما تحمله كلمة الاستقلال من معنى، وإنما هذا الاستقلال نسبى الدلالة محدود

---

١) اللغات السامية ص١٢.

٢) اللغة لفندرس، ص٣٦٧.

المفهوم، يتسع أحيانا ويضيق أحيانا أخرى "إن اللغات متداخلة ببعضها، ولعل من دلالة الحيوية فيها أنها تتقبل من غيرها كلما جدت الحاجة إلى هذا"[١].

الاختلاف والتشابه بين اللغات

أن الاختلاف أو التشابه بين لغة وأخرى يكون فى الاصوات، أو فى طبيعة تركيب اللغة، أو فى الانماط السائدة فيها، أو فى شكل الكتابة، كما انه لكل لغة فصائل نحوية تختلف كثرة وقلة تبعاً لظروف اللغة، فالنوع والعدد والزمن، والحالة الفعلية، كلها فصائل نحوية، ونرى أن نشير إلى بعض الفصائل مثل:

فصيلة الجنس، أو ما نسميه فى النحو العربى النوع، هذه الفصيلة توجد فى الهندية الأوربية والسامية منذ عصورهما السحيقة الموغلة فى القدم، وكل فصيلة تعالج فكرة الجنس بطريقتها الخاصة[٢]، وكثيراً ما تكون بعيدة عن العقل، فلا نجد صلة عقلية واضحة بين ما يدل على المذكر وما يدل على المؤنث، فمثلا كلمة مائدة "Table" ومقعد "Chaire" تعتبرهما الفرنسية من المؤنث[٣]، والعربية تعتبر "مائدة" مؤنثا بينما تعتبر "مقعد" مذكرا.

واللغة الهندية الأوربية تقسم الجنس إلى ثلاثة أنواع: مذكر ومؤنث ومبهم، أو محايد بينما هو فى السامية نوعان: مذكر ومؤنث، وهناك من اللغات ما ينظر إلى الجنس باعتبار ما هو حى وما هو جماد.

ولقد بلغ من التباين بين اللغات فى هذه الناحية أننا نرى فى لغات

---

١) فقه اللغة المقارن، ص ١٦٥.

٢) من أسرار اللغة، للدكتور/ إبراهيم أنيس ٩١.

٣) اللغة ١٢٧.

الفصيلة الواحدة كلمات تعتبرها إحدى اللغات مذكرة بينما تعتبرها الأخرى مؤنثة، فكلمة "شمس" التى تعتبرها العربية مؤنثة نراها فى الآشورية مذكرة وفى العبرية والآرامية جائزة التذكير والتأنيث[1].

وإذا كان موضوع الجنس لا يأخذ طريقة واحدة فالعدد أيضا ليس احسن حالا فى هذا ففى بعض اللغات نرى مفردا أو جمعاً، بينما فى البعض الآخر نرى مفردا ومثنى وجمعاً، بل هناك بعض لغات أفريقيا تجعل صيغة للمفرد، وأخرى للمثنى، وثالثة للمثلث، ورابعة للجمع لأنها تعتبر الجمع ما زاد على ثلاثة[2]، بل ما قد يكون مفردا فى لغة قد يستعمل استعمال الجمع فى لغة أخرى، فالضمير "أنت" فى العربية يستعمل للمفرد بينما ما يقابله فى الإنجليزية يستعمل بالإضافة إلى المفرد جمعاً.

وفكرة الزمن أكثر تعقيدا، واشد تبايناً، كل لغة تسلك فيها طريقا خاصا، فبينما ترى فى العربية للفعل ثلاثة ازمان هى الماضى والمضارع والمستقبل نرى فى الإنجليزية تسعة ازمان هى الماضى Past والمضارع Present والمستقبل Future ولكل نوع من الانواع الثلاثة ثلاثة فروع، فهناك البسيط، وهناك التام، وهناك المستمر.

وفكرة الملكية أو الإضافة نجدها أساسية فى اللغة إلا أنها تأخذ اشكالا متباينة فالعربية تجعل المضاف أولا بينما الصينية تضع المضاف إليه أولا، والفرنسية تستعمل أداة ربط أحد استعمالاتها بين المضاف والمضاف إليه، فنحن فى العربية نقول: "كتاب هدى" والانجليزية تقول: "Book of Huda" أو "Huda's book" والفرنسية تقول: "Le livre de Huda" والألمانية تقول: "Dasbuch des Huda" فإن كل لغة أرادت، إظهار العلاقة بين الكتاب وهدى، ولجأت إلى طريقة افادت هذا المراد بغض

---

١) من أسرار اللغة، ٩٤.

٢) لغات أفريقيا، ٨٩.

النظر عن الشكل الذى لجأت إليه، ولهذا يرى علماء اللغة أن لا فضل للغة على أخرى "وإن كل ادعاء بأن هذه اللغة أو تلك احسن اللغات، واغنى اللغات واشرف اللغات هو من باب المباهاة[١].

إنما أردنا أن نبين أن هناك اختلافا كبيرا بين اللغات فى معالجتها للأنماط اللغوية، وأن كان إلى جوار ذلك تشابه كبير فى الأصول العامة، ففكرة الجنس والنوع والعدد توجد فى اللغات عموما على اختلاف فى نظامها وتباين فى تفاصيلها. وكذلك الأمر بالنسبة للأصوات اللغوية فالصوت أساسا موجود ولكن على اختلاف فى النطق والأداء ، وهناك من اللغات ما تتشابه أصواتها إلى حد كبير كما هو حاصل بالنسبة للغة العبرية والعربية، كما أن لكل لغة سمتا خاصا فى تراكيبها ونظام بنية الجملة فيها أو ما يعرف بـ "Syntax" فبعضها يبدأ بالفعل كما هو الأمر بالنسبة للغات السامية، وبعضها يبدأ بالاسم كما هو الحال بالنسبة للغات الهندية الأوربية والأمر أكثر وضوحاً بالنسبة للحروف المستعملة والرموز الصوتية فكثير من اللغات تشترك فى أبجدية واحدة أو بمعنى أدق فى حروف واحدة كما أن بعض اللغات قد استعارت أبجديتها من غيرها فاللغة الأردية والفارسية والتركية قد استعارت أبجديتها فى العربية فى عهد العثمانيين وكذلك الأسبانية فى العهد الإسلامى العربى[٢].

وحتى فى الكتابة وطريقة القراءة نجد تبايناً فهناك اللغات التى تكتب وتقرأ من اليمين كاللغة العربية والعبرية والسريانية والآرامية والفينيقية والإثيوبية، ولسنا هنا بصدد بيان أى الطرق افضل: البدء بالفعل أو الاسم أم الكابة من اليمين أو من الشمال وإنما نريد أن نبين أن هناك اختلافا. كما أن هناك تشابهاً يقول من فندريس: "لا ينكر إنسان وجود بعض سمات أساسية

---

١) نحو عربية ميسرة، ص ٧٥، د/ أنيس فريحة.

٢) مشكلة تعليم اللغة العربية لغير العرب، ص٦١، د./ على الحديدى، دار الكاتب العربى، ١٩٦٧.

مشتركة مهما اختلفت العادات العقلية بين شعوب الأرض المختلفة، فهناك منطق إنسانى ، وتوجد كليات منطقية كبرى عند جميع بنى البشر الذين يفكرون، وهى بطبيعة الحال أساس الفصائل النحوية[١].

وأياماً كان الاختلاف أو التشابه[٢] فى اللغة فما هى إلا وسيلة للتعبير، وأداة للتفهيم وطريق للتوصيل، وسبيل للتبادل.

الجوانب التى يتناولها الاقتراض

لما كان الاقتراض يتناول نواحى عديدة فإننا نرى من الضرورى أن نعرض لهذه الجوانب بالتفصيل:

(١) الاقتراض فى المفردات

إذا كان الإنسان ينتقل من مكان إلى آخر ، وهاجر من بقعة إلى أخرى فليس غريبا أن يكون للألفاظ هجرة تصاحب الإنسان فى رحلته، وتنتشر معه فى اتجاهه، لأن اللغة تصحب الإنسان حيثما سار وهى فى خلال مصاحبتها تؤثر وتتأثر، كما أن اللغة شانها شأن أى فرع من فروع المعرفة تنتقل بين الناس، فليست المعرفة ملكا لامة دون أخرى ، ونحن لا نعرف أن شعبا من الشعوب امتلك المعرفة واخذ بناصيتها، واستوى على زمامها، ولم يشاركه فى هذا غيره، ذلك لأن التراث الإنسانى محصول طائفة كبيرة من الأمم وأن اختلف فيه حظ كل أمة عن غيرها.

واللغات -بطبيعة الحال- ما دام هناك اتصال وتداخل لابد أن تأخذ وتعطى وتعير وتستعير، وإذا نظرنا إلى لغتنا العربية وجدنا أنها مدت

---

١) اللغة ص١٥٤.

٢) لمعرفة المزيد من وجوه الشبه ووجود الاختلاف بين اللغات، ينظر مدخل إلى اللغة. ص١٠٣ وما بعدها، د/ محمد حسن عبد العزيز.

واستمدت فهى قد أعطت اللغات الأخرى كثيرا من المواد المختلفة فى شتى عصورها، ففى التركية والفارسية ألفاظ عديدة من العربية، فالفارسية قد استخدمت الشهور، والتركية أخذت مصادر عربية مثل الحشمة والنزهة والهداية وغيرها إلا أنها استعملتها أعلاما.

وفى اللغات الأوربية كثير من المواد العربية ويستطيع الباحث إحصاء العديد من هذه المواد التى دخلت اللغات الأوربية وشاعت فى لغاتهم وما زالت مستعملة حتى الآن، وكذلك الحال بالنسبة للعربية فقد أخذت من غيرها كالفارسية كما أخذت كلمات إفرنجية واستعملتها وربما آجرت عليها قواعدها، وأخضعتها إلى مقاييسها الصرفية، فتبدو وكأنها عربية الأصل مثل كلمة Term التى معناها الأجل أو المدة وجمعت على "تروم" فقد جمعت "فعل" على "فعول"[1].

ومما تجدر الاشارة إليه أن هجرة الكلمة نوعان:

١) أحيانا تكون مباشرة بأن تأخذ اللغة من الأخرى بدون وسيط مثل الجبر، والجمل فقد اخذتها اللغات الأوربية من العربية بدون وسيط.

٢) أحيانا تكون بواسطة بان تأخذ اللغة من غيرها عن طريق لغة أخرى مثل: الكحول فقد اخذتها اللغات الأوربية من العربية بواسطة اللغة الاسبانية[2]، وكما أخذت عن الفارسية بواسطة العربية، "الجوسق" التى تعنى البيت[3].

التغيرات التى تلحق الكلمة:

إن الكلمة حين تهاجر إلى بيئة أخرى قد يمتد التغير بالنسبة لها فيما يتعلق بالمدلول أو الاستعمال أو الشكل: فقد يتقيد مدلولها كما فى كلمة

---

١) المباحث اللغوية فى العراق، ١١٨، د/ مصطفى جواد، القاهرة.

٢) فقه اللغة المقارن، ١٦٧.

٣) السابق.

(تماشى) العربية التى اصبحت فى الفارسية لا تدل على مطلق المشى، وقد تضيف إلى مدلولها معنى آخر مثل (التهور) فإن الفارسية استفادت منها معنى آخر هو الشجاعة، وقد تستعمل استعمالا مغايراً مثل كلمة "الكحل" العربية التى صارت فى اللغاتك الأوربية "الكحول" واصبحت تدل على المواد الروحية فى حين اصلها العربى يفيد "ما تكتحل به العين"، وأحيانا يتسع معناها مثل كلمة "Rose" اللاتينية التى تعنى وردة، فإن الألمانية صارت تطلقها على كل زهرة.

عودة الألفاظ المهاجرة إلى مكانها:

إن الكلمة إذا ما تجاوزت حدود لغتها انفتح الطريق امامها ، وبعد رحلتها التى قد تطول أو تقصر -قد تعود إلى بيئتها الأولى وفى غالب الأحيان يصيبها من التبديل والانحراف الصوتى ما يبعدها بعض الشىء عن نهجها الاصيل مثل: "حبل" التى عادت "كابل -Cable" ومثل جمل التى عادت "كمل - Camel" ومثل كلمة ليمون العربية فقد صارت فى الإنجليزية "Lemon" وفى الفرنسية "Limon".

وكلمة "ساى" أخذت صورا متعددة فهى فى العربية "شاى" وفى الإنجليزية "Tea" وفى الفنرسية "The" وفى الألمانية "Tee" وكلمة "طباق" التى انتقلت من سكان أمريكا الاصليين والتى هى فى العربية "طباق" وفى الفرنسية "Tabac" وفى الإنجليزية "Tobacco" وفى الألمانية "Tabak" .

أحيانا تخرج الكلمة من اللغة لتستعمل فى لغة أخرى ، وتعتبر مفقودة بالنسبة للغتها الأصلية ، ثم تعود إلى مكانها مرة ثانية مثل "Flirt" مغازلة "Budget" ميزانية، فإنهما تعتبران الآن فى الفرنسية مستعارتين من الإنجليزية علما بأن الموطن الاصلى لهما هو فرنسا[1].

---

١) اللغة ص ٢٤٨.

ونرى أن نشير إلى بعض المفردات التى تقارضتها اللغات فيما بينها، فالانجليزية مثلا أخذت من العربية كلمات كثيرة تصل إلى حوالى ٥٠ كلمة منها:

الطرف الاغر Tarafalsar، الكهف: Alsave ، عطر: Attar، هودج: Howdak ، منارة: Minaret، شراب: Syrop، جمل: Camel، مات: Mate ، كما أخذت العربية من اللغت الأوربية الكثير وخاصة ما يتعلق بالفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم والفنون فنجد: تليفون: Telphone، والترمومتر: Thermometer، واستديو وغير هذا كثير.

هذا وفى اللغة العربية مفردات من اللغات السامية الأخرى يكاد ينطق فى العربية كما ينطق فى لغته الاصلية، مثل: اصبع 𐤀𐤑𐤁𐤏 ، كتف: 𐤊𐤕𐤐 جمل: 𐤂𐤌𐤋

ومثل هذا الاقتراض حدث بين الإنجليزية والفرنسية كما انتقل إلى الألمانية الحديثة كثير من الفرنسية. وقديما أخذت اللاتينية من الاغريقية الكثير من مفرداتها، كما أن الجرمانية اقترضت كثيرا من مفردات اللغة اللاتينية: والمتبع للغات العالم يجدها لم تر ضيقا أو حرجا فى أن تقترض من غيرها، تتم به نقصها، وتكمل به حاجتها وتزيد من عدد كلماتها حتى تتسع دائرة المخاطب بها، وإلا وقفت جامدة وتقلصت وماتت كما تموت الاجسام التى تسوء تغذيتها، ولعل اصدق دليل على ذلك أن معجم اللغة الإنجليزية كان لا يزيد على عشرين الف كلمة فأصبح الآن يربو على مائة الف كلمة، وما حصت الإنجليزية على هذه الزيادة إلا عن طريق اقتراض الآلاف المؤلفة لكلمات من اللغات الأخرى[1]، وبهذا تمت واتسع معجمها.

---

١) دور الكلمة فى اللغة، ص١٤٣، استيفن اولمان، ترجمة: د./ كمال محمد بشر.

(٢) الاقتراض فى النحو والصرف

أن المسائل المتعلقة بالقواعد ونظام تركيب الجملة من الأشياء التى لا تستجيب للاقتراض بسهولة، ولا تخضع للاستعارة إلا بعد مرحلة تسمى "بتحليل اللغة"، ومع ذلك فإن أثر اللغات فى بعضها لا يخلو من التأثر فيما يتعلق من القواعد وخاصة إذا كانت اللغات تنتمى إلى فصيلة واحدة أو قلة فى اللهجات المتفرعة عن لغة واحدة ونجد عملية الاقتباس تنتشر بسرعة فى لهجات الخطاب حيث ينطلق المتكلم فى حديثه متحررا من القيود التقليدية التى تضعها المعاجم اللغوية، وذلك لا ترى مانعاً من أن تشتق من الاسم "تليفون" الفعل "تلفن".

هذا وأن الباحث فى اللغات الإنسانية يجد أن لكل لغة طابعها المميز لها ونظامها الخاص فيما يعرف بهندسة الجملة فالبعض يبدأ بالفعل أو الحدث لاعتبارات ليس مجالها هنا، بينما الآخر يبدأ بالاسم، ولغتنا العربية خصوصا والسامية عموما من النوع الذى يتهم بالفعل والدليل على اهتمام العربية بالفعل غلبة الجملة الفعلية على كلام العرب[١] كما أن على الجارم يرى: "أن الفعلية العربية تقتضى أن تكون الجملة الفعلية الأصل ، والقالب الكثير فى التعبير"[٢]، والمتأمل فى النصوص يرى ذلك واضحا.

"إن اللغات تختلف فى النظام الذى تخضع له فى ترتيب كلماتها بعلاقة كل كلمة بالأخرى ، فللفعل مكان خاص من الجملة، وللفاعل مكان آخر والمفعول مكان ثالث وهكذا[٣]، فنحن نقول فى العربية يكون الإنسان بخيلا أو الإنسان يكون بخيلا، بينما اللاتينية تقول الإنسان بخيلا يكون، أو

---

١) فقه اللغة المقارن، ٥٤.

٢) مجلة المجتمع، الجزء السابع، ص٣١٧، ١٩٥٣.

٣) دلالة الالفاظ، ص١٧١.

بخيلا يكون الإنسان[1]، والإنجليزية تقول الإنسان يكون بخيلا.

وبالرغم من اختلاف النسيج النحوى والصرفى بين اللغات إلا أن اللغة عندما يتاح لها الاتصال بغيرها فإنها تتأثر بها، وتقترض منها بعض النظم الخاصة بهندسة الجملة، لأن النظام النحوى يمكن أن تصب فيه مفردات مختلفة كما هو الحال بالنسبة للغجر الأرمينيين فإنهم يستعملون لغة أرمينية نحوا، ولكن مفرداتها غريبة عن الأرمينية[2]. وكذلك فى المناطق التى تتكلم الأردية فى جنوب شرقى آسيا فإن الأردية الأدبية تستعمل كلمات فارسية وتصبها فى قوالب هندية لأن الناحية الصرفية مستقلة عن القيمة المعنوية للكلمات.

ومن آثار الفرنسية فى المغرب ما يظهر فى تقديم اللقب على الاسم واللقب يشير إلى الأسرة[3] وهذا ما لم تعرفه العربية فهم يقولون أبو على أحمد بدلا من أحمد أبو على فأهل المغرب قد اقترضوا مثل هذا التركيب واستعملوه فى لهجتهم نتيجة لتأثرهم بالفرنسية التى يعتبر مثل هذا التركيب معهودا فيها.

يظهر مثل هذا فى اقتراض اللهجة العراقية من اللغة التركية بعض القواعد المتعلقة بالنسب والإضافة مثل: عربجى فى النسب إلى عربه، جزمجى، رزنامجى -كتب خانة أى دار كتب. وكما جدت بالنسبة للإيرانيين حين استعملوا اللغة العربية لغة تأليف وكتابة، فقد ادخلوا فى الاستعمالات بعض الأفعال الفارسية، كما استعملوا أدوات الربط اللغوى من الفارسية أيضا.

هذا وأن الناظر لعربيتنا الحديثة يرى أنها اقترضت من اللغات الأجنبية نتيجة للترجمة نظام الجملة، فيكثر فيها الاسم متلوا بالفعل ويتبين

---

١) اللغة، ص١٨٨.

٢) اللغة، ص٢٢٦.

٣) فقه اللغة المقارن، ٢٢٥.

ذلك فى الأخبار التى تذيعها وكالات الأنباء، وفى الأقاصيص المترجمة، كذلك نجد شيئا يشيع استعماله وهو جمع المصدر فنسمع نشاطات جمعا لنشاط، ونضالات جمعا لنضال، وتمردات جمعا لتمرد هذا كله مستعار من اللغات الأجنبية فإن التمرد يقابل: Revolt ونشاط يقابل: Activity.

فاذا جمعنا أضيف إلى كل واحدة حرف S ومثل هذا الجمع معهود فى اللغات الأجنبية. ومع شيوع استعمال جمع المصدر فى الصحافة واسالب الكتاب إلا أن له اصلا فى العربية، فقد أجاز بعض العلماء جمعه ومنعه بعضهم[1].

ومما سبق يتضح أن الاقتراض فى النظام النحوى أو الصرفى – رغم قلة– فهو يزيد طرائق الكلام، وينمى وسائل التعبير، ويجعل اللغة مطواعا، ويزيدها نماء وثروة ويجعلها أقدر على الوفاء بحاجات الإنسان ، واقوى على الاستجابة لمطالبه.

(٣) الاقتراض فى الاصوات

أن من المعروف لدى المشتغلين بتعليم اللغات أن اختلاف الأصوات بين لغة وأخرى من الصعوبات التى تواجههم ولذلك لأن لكل لغة أصواتها الخاصة، وأن كان هناك قدر مشترك بين جميع لغات البشر كما بين ذلك المحدثون من علماء الأصوات فانهم بعد استعراضهم للأصوات الإنسانية بتسجيلها، ثم إعطاء كل منها رمزا خاصا خرجوا بالنتيجة السالفة، فمثلا الباء، والفاء، والذال، والدال والسين، والجيم والكاف تكاد توجد فى معظم اللغات البشرية وأن وجد فرق فى النطق فإنه يكون يسيرا لا يفقد الصوت خصائصه العامة فالتاء العربية والعبرية والفرنسية والإنجليزية كلها تاء

---

١) يجيز بعض علماء العربية جمع المصدر، يقول ثعلب: لا تجمع المصادر إلا قليلا (مجالس ثعلب ٢/٤٦٥)، والفراء يمنع ذلك يقول: "المصادر لا تجمع" (معانى القرآن ٢/٢٦٣).

عموما، خاصة إذا عرفنا أن الحرف الواحد قد تعترضه بعض التغيرات فى كيفية نطقه فى لغة واحدة، وحسبنا فى العربية الترقيق والتفخيم، وفى الإنجليزية مثلا حرف "L" يعرض له مثل هذا التغيير فينطلق عليه أحيانا "Dark L" أى اللام المعتمة، وأحيانا يطلق عليه "Clear L" أى اللام الصافية(١).

واللغة إذا لم تجد أصواتا كافية لديها فإنها تلجأ إلى الاقتراض وابتداع حرف جديد، يحدثنا "فندريس" أن اللغة الفرنسية لم تكتف بالحروف اللاتينية فاضطرت إلى خلق حروف جديدة(٢).

وبطبيعة الحال ليست الحروف إلا رمزا للأصوات فإذا كانت لم تكتف بالحروف فمعنى هذا أنها لم تكتف بالأصوات اللاتينية وفكرة خلق حروف جديدة لم تعد مستساغة اليوم بعد أن بلغت اللغات حدا كبيرا من النماء، ولعل حب فندريس للغة الفرنسية هو الذى جعله يفضل استعمال خلق الحروف بدل اقتراض الحروف خاصة إذا عرفنا أن الأبجدية الفرنسية تتساوى مع الأبجدية الإنجليزية على أنه يمكننا القول بأن الفرنسية خلقت حروفا جديدة فى وقت سابق ثم استعارت الإنجليزية منها هذه الحروف لكن مثل هذا القول يحتاج إلى أدلة تاريخية ليست فى حوزتنا.

ومن ثم فإن الاثر الصوتى يظهر على السنة المتكلمين فالفارسى عندما ينطق بالعربية كلمة "قمر" يقول "كمر" وعندما يقول: قال، يقول/ كال. فهذا نتيجة لتأثر لسانه بلغته.

والواقع أن شيئا غريبا يربط الأصوات الإنسانية بعضها ببعض فصوت "اللام" العربية يقابله "L" الإنجليزية والنون يقابله "N" والتاء يقابله "T" وهذه الأصوات يبدو التشابه بينها ظاهراً وواضحاً، مما يغرى

---

١)علم اللغة مقدمة القارئ العربى، ١٧١٠، د. محمود السعران، ط٢، دار الفكر العربى.

٢) اللغة، ص ٢٤٥.

الباحث على القول بأن الأصوات اللغوية كانت واحدة فى بادئ أمرها ، ولكنا نتيجة لعوامل التطور والتأثر بالمكان والزمان والجنس، حدث بينها خلاف، كما أن بعض الأصوات قد طرحت عند قوم، واحتفظ بها الآخرون والبعض قد حدث تفاوت فى نطقه كصوت "الفاء" السامى والصوت الأوربى "V" .

هذا وإن تبادل الأصوات اللغوية من شأنه أن يساعد على اكتمال اللغة، وسد ما بها من نقص كما أنه يعطى مزيدا من القدرة لدى الناطق تمكنه من النطق بأصوات عديدة.

(٤) الاقتراض فى الأساليب

إن اللغة مادة تظهر المجتمع الإنسانى على حقيقته، فهى وعاء تجاربه، ووسيلة نقل أفكاره وتبادل معارفه كما أنها ليست رابطة بين أعضاء مجمع بعينه، وإنما هى عامل فى وسطك المجتمع الإنسانى كله. على اختلاف ألوانه وتعدد أجناسه، وشأن المجتمعات المفتوحة وهى المجتمعات التى تتقارض المعارف والمعلومات وتتناقل الثقافة والخبرات – أن تأخذ وتعطى، وتفيد وتستفيد، لأن الحياة الاجتماعية يجد فيها الكثير من المخترعات ووسائل المعيشة وبالتالى لابد أن يحدث تأثر فى طريقة الكلام، ونظام الحديث وهذا شىء طبيعى فى اللغة الواحدة فالعربى الذى كان يقول فى ممدوحه:

أنت كالكلب فى الوفاء *** وكالتيس فى قراع الخطوب

لم يعد مقبولا منه هذا الكلام بعد أن تغيرت البيئة وكثرت الصور الحضارية، وما دامت اللغة من صنع الناس، وخادمة لأفراد المجتمع فمن الطبيعى أن تتبادل الأساليب وتتقارض التراكيب لتزداد ثروة ونماء.

وإذا تتبعنا مثل هذا نجده منتشرا فى لغتنا العربية وشائعاً فى الصحف والكتب وذلك الاتصال بالآداب الأوربية، فقد بدأ الغرب يقترب من

الشرق مع بداية هذا القرن، ونتيجة لهذا فقد تأثر العرب بهذا فى أفكارهم، وطريقة حياتهم، وكان من جراء هذا أن دخل اللغة العربية شيء جديد، فقد جدت فيها أساليب لم تكن إلا وليد "الترجمة"، ولم تتنكر العربية لهذه الأساليب، بل هذه الأساليب تجاوزت لغة الصحف إلى المقالة الأدبية ومن هذه الأساليب مثلا استعمال الاحتجاج فى موضع الإنكار مثل: احتج العمال على سوء معاملتهم، فأصبح هنا معناها: استنكر، علما بأن الوضع اللغوى للاحتجاج هو الإدلاء بالحجة والدليل لتأييد الدعوى وقد جاء هذا من الترجمة الفرنسية للعبارة: Je proteste contre une injustice.

أى احتج فى مواجهة جور واقع فالاسلوب الغربى يشرب المادة معنى الاستياء والانكار[1] ويشير "يوهان فكه" إلى تأثر العربية بالأساليب لتأثير القوالب الأوربية المتغلغل خفيا دون انقطاع فالمصرى الحديث الذى يستعمل هذا التعبير: تحية قلبية فى موضع:

Perzlih heartily corgiall

يعترف بالتأثير الغربى من وجهة مضاعفة، فهو يصوغ على نموذج أوربى من اسم عربى بواسطة نسبة عربية لا يجوز حسب القواعد العربية الفصيحة صوغه من أسماء الأعضاء الجسمية، كما انه من ناحية أخرى يخالف مذهب لغته التى تعد القلب مركز العقل والشجاعة، فينسب مشاعر واحساسات تنسبها العربية الأصيلة إلى الكبد أو الضلوع أو الأحشاء"[2].

ومن الأساليب التى دخلت العربية أيضا[3]: هو يمثل الرأى العام وهو من قولهم فى الفرنسية: "J Lre Presenie L'opinion Publique" وفى الانجليزية: "Here Presents Public Opinion".

ونقول: هذه القضية مطروحة على بساط البحث، وهذا كما فى

---

١) اللغويات للأستاذ/ محمد على النجار، ص١٢.

٢) العربية ليوهان فك، ٢٣٢.

٣) ينظر فقه اللغة المقارن ٢٨٦ وما بعدها، ك د. إبراهيم السامرائى، بيروت.

العبارة الفرنسية "Cette couse estmise sur le tapls" ونقول قتل الوقت، وهو فى الفرنسية "Pour tller letamps" وفى الانجليزية: "To kill the time".

ونقول: هو يلعب دوره، وهو فى الفرنسية: "Il joue sonrôle" وفى الانجليزية: "He plays his part". فهذه الأساليب وغيرها مما يضيق المقام عن ذكره قد دخلت العربية من غيرها.

ومن هذا يتضح لنا أن اقتراض الأساليب يمد اللغة بطرائق جديدة تجعلها أكثر قوة، كما يعطيها الطاقة التى يستطيع الناطق بها أن يجد وسائل شتى للتعبير عن خبيئة نفسه، وخفايا فؤادة.

(٥) الاقتراض فى الحروف الهجائية

إذا كان البحث فى مسائل اللغة من الأمور التى أعيت العلماء، واستنزفت الكثير من جهودهم وأفكارهم فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة للكتابة نظرا لأنها تعد اختراعا متأخرا نسبيا عن اللغة، فالكتابة لم تعرف إلا منذ حوالى خمسة آلاف سنة على أيدى السومريين وقدماء المصريين، ولذا لم تكن هناك مشكلة بالنسبة للغة المكتوبة، وإنما المشكلة خاصة باللغة كأداة للتفاهم.

ويبدو أن الإنسان الأول استعمل الصورة كأداة للتعبير فمثلا إذا أراد التعبير عن بيت رسم شكلا دالا على ذلك، وإذا أراد التعبير عن جمل رسم شكل جمل، ولكن هذه الطريقة البدائية بطبيعة الحال بدأت تتطور - حيث لم توجد كتابة تصويرية واحدة قد بقيت على ما هى عليه[1]. فاخذ جزءا من هذا الشكل للتعبير عن الحرف فمثلا لو افترضنا أن شكل البيت هكذا: وهو بيت بدائى يتكون من أربعة جدران فقط لرأينا مدى التشابه بين

---

١) اللغة. ص ٣٩٤

هذا الرسم والباء العربية "ب" والباء العبرية " "، وكذلك الجيم فى العربية "ج" والعبرية " " كما ترى القرص فى الكتابة المسمارية يشير إلى الشمس والنور والبريق والنهار والبياض كما تشير العين فى الكتابة الهيروغليفية إلى النظر والسهر والعلم.

ولندع هذا لنتساءل: ما العلاقة بين الكتابة واللغة فعلماء اللغة لا يهتمون إلا باللغة المنطوقة.

وللإجابة على هذا نقول: أليست اللغة أصواتا يعبر بها الإنسان عن غرضه؟ ثم أليست تلك الحروف رموزا حاملة للقيمة الصوتية فإذا ما رآها الإنسان تذكر معها الصوت المصاحب لها، فعندما نرى حرف الباء مثلا يقفز إلى أذهاننا تَواما يحمله من صوت، وما ذلك إلا لأن الصورة والصوت اصبحا بديلين، وعندما وصل إلى درجة التعادل أمكن للعقل أن ينظر إلى الصورة على أنها شعار الصوت، ثم على أنها أداة لتثبيته بالكتابة، وعندما صار اسم الشيء بدوره مرتبطا بالشيء انتهى أيضا بأن صار مرتبطا بالصورة التى أيقظت فكرة هذا الشيء، فالعلاقة التى كانت تمثل الشيء صارت أيضا علاقة الصوت الذى يعبر عن هذا الشيء، ومن ثم تظهر قيمة الحرف فى اللغة وما له من أهمية فى تمثيل أصواتها.

أنواع الكتابة: لقد استقر أمر الكتابة على نوعين:

الاول: الكتابة التصويرية: وهى تلك التى تكتب الحروف فيها مشيرة إلى الرموز والدلالات الصوتية.

الثانى: الكتابة الصوتية: وهى التى تكتب الكلمات فيها حسب نطقها وتستعمل فى مجال التعليم حيث تمكن الدارس من اجادة نطق الكلمات فى اللغة التى يريد أن يتعلمها إلى حد ما.

وسبق القول بأن بعض اللغات تبدأ الكتابة فيها من الشمال بينما البعض يبدأ من اليمين، ولغتنا العربية والأسرة السامية عموما من هذا النوع وتشارك العربية فى هذا اللغاتُ التى اقترضت أبجديتها من العربية

كاللغة الأردية والفارسية والملاوية والتركية فى عهد العثمانيين والأسبانية فى العهد الإسلامى العربى.

هذا وأن المتتبع للأبجديات وتاريخها يرى -على ما بينها من اختلاف وتباين- أنها لم تبدأ كاملة وإنما تطورت بدافع الحاجة، ثم تنقل بعضها فى أنحاء متفرقة من العالم، واستعار بعضها ما ينقصه من حروف "بعض الحروف لا يوجد لها نظير فى هجاء لغة أخرى فتضطر اللغة الخالية حينئذ إلى الاقتراض وتسمى هذه الطريقة Transliteration أى نقل الحروف.

ويمثل هذا العمل تسد اللغة حاجتها، وتفى نقصها، وتكون أقد على إلى تعبير وتقوم فى المجتمع بدور كبير.

ويتضح مما سبق أن اللغات تقرض وتقترض، وتؤثر ويتأثر، وتظهر ذلك جليا فى الدراسات العربية القديمة إلا أن العلماء العرب فى ذلك الحين لم يهتموا إلا بما أخذته لغتهم من غيرها، أما ما أخذه غيرهم من لغتهم إلى لغته فلم يولوه أية عناية، فهم لم يعرضوا الأمر كمظاهرة إنسانية عامة هى فى لغتهم كما فى لغة غيرهم، وإنما كان أمرهم مقصورا على ناحية واحدة علما بأن العجم أخذوا عنهم "إن العرب تعرب الأعجمى كذلك العجم تعجم العربى"[١].

إنه مما لا شك فيه أن العربية أفادت كثيراً من هذه الروافد، فأكملت معجمها، وتلاشت نقصها، حيث إنها كانت لغة محلية فى الجاهلية وصدر الإسلام[٢]، ولما أتيح لها أن تنطلق من عقالها، تتجاوب أصداؤها فى كثير من الربوع والاصطناع تبادلت التأثير والتأثر، وكان لها ما كان من الذيوع والانتشار.

---

١) شفاء الغليل.

٢) تاريخ الادب العربى، بروكلمان، جـ١.